مضمون الخطاب النثري العربي القديم/ الأستاذة الدكتورة سكينة قدور

فن الترسل من العصر الجاهلي إلى العباسي

الكتابة في العصر الجاهلي

الكتابة عنوان الرقي والتقدم عند الأمم ومظهر من مظاهر الحضارة، وقد كانت البدايات الأولى للكتابة عند الإنسان غامضة لا يدرى أتوقيفية هي أم وضعية، ولكن المؤكد أنه استخدمها في مراحل معينة دلت عليها آثار الحضارات القديمة، ومرت بتطورات على مر العصور، كان أولها في الشرق الأدنى القديم (الحضارة السومرية والحضارة الفرعونية) ممثلا في الكتابة المسمارية في وادي الرافدين والهيروغليفية في مصر، وآخرها الكتابة الأبجدية عند الفنيقيين وهي مصدر الأبجديات التي انتقلت إلى اليونان والإغريق واعتمدتها اللغات السامية في المشرق.

– الكتابة العربية في العصر الجاهلي: لا يعني الجهل عدم معرفة العرب بالعلوم والكتابة والقراءة، فمع "أن عرب الجاهلية لم يكونوا أهل كتابة، فإن الكتابة عندهم لم تكن نادرة، لقد كان العرب يكتبون بينهم العقود والمواثيق ويكتبون الرسائل في بعض الأحوال، ويبدو أن الشعراء كانوا يدونون أشعارهم أيضا، ومع أن الكتابة معروفة في الجاهلية، فإنها لم تكن مألوفة خصوصا في البادية" بسبب حياة الترحال والتجارة، وقد ذكر القرآن الكريم وسائل الكتابة في مواطن عدة للدلالة على معرفة العرب بها.

ولما جاء الإسلام كان في قريش سبعة عشر رجلا يعرف الكتابة، وكانت الشفاء بنت عبد الله العدوية تحسن الكتابة، وكان في المدينة بضعة عشر يكتبون منهم سعيد بن زرارة والمنذر بن عمرو وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورافع بن مالك وأسيد بن خضير ومعن بن عدي وبشر بن سعيد...

–وقامت في مكة والمدينة والحيرة والطائف والأنبار مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية، يقول الجاحظ في حرصهم على كتابة المواثيق: "وأقول لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط... ولتعظيم ذلك والثقة به والاستناد إليه كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيما للأمر وتبعيدا من النسيان، ولذلك قال الحارث بن حلزة في شأن بكر وتغلب:

واذكروا حلف ذي الجار وما قدم فيه من العهود والكفلا..." [1]

من هذه العهود ما كان بين العرب وغيرهم مثل عقد حلف قريش مع النجاشي وعقد حلفها مع هرقل، وقد اشتملت تلك العقود المكتوبة على العهود الشخصيةوالقبلية والمعاملات المالية والتجارية والمراسلات الشخصية، من تلك العهود كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم وخزاعة جاء فيه: "باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجالات عمر بن ربيعةبن خزاعة، تحالفوا على التناصر والمواساة، مابل بحلر صوفة، حلفا جامعا غير مفرق: الأشياخ على الأشياخ، الأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد لا ينتقض ولا ينتكث ما أشرقت شمس على ثبير وحن بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان واعتمر بمكة إنسان، حلف أبد لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شدا وظلام الليل مدا، وأن عبد المطلب وولده ومن معه ورجال خزاعة متكافئون متظاهرون متعاونون، فعلى عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل، وجعلوا الله علىذلك كفيلا وكفى بالله جميلا[2].

كما دون العرب بعض الوقائع التاريخية وأنساب القبائل[3] وهناك بعض الكتب الدينية مثل كتاب دانيال وكتب الحكمة، من كتابهم المشهورين ورقة بن نوفل، ومنهم من عرف اللغات الأعجمية مثل النضر بن الحارث. من دلائل كتابتهم الشعر لحفظه من الضياع

قضية تعليق المعلقات على أستار الكعبة، يقول ابن رشيق: "كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون في خزانته"[4]، ويقول ابن سلام في طبقات فحول الشعراء: "وقد كان عند النعمان بن المنذر مئة ديوان في أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان أو ما صار منه"[5] وإن شكك كثيرون في إمكانية ذلك.

ومن رسائلهم المشهورة كتاب أكثم بن صيفي إلى النعمان بن خبيصة البارقي وقد طلب منه في كتاب يقول: "مثل لنا مثالا نأخذ به"، فأجابه برسالة مطولة جلها حكم وأمثال، منها: "قد حلبت الدهر أشطره، فعرفت حلوه ومره، عين عرفت فذرفت، إن أمامي ما لا أسامي رب سامع بخبري لم يسمع بعذري كل زمان لمن فيه. في كل يوم ما يكره. كل ذي نصرة سيخذل. تباروا فإن البر ينمي عليه العدد. كفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه. إن قول الحق لم يدع لي صديقا. الصدق منجاة. لا ينفع مع الجزع التبقي، ولا ينفع مما هو واقع التوقي. ستساق إلى ما أنت لاق. في طلب المعالي يكون العناء. البطر عند الرخاء حمق، والعجز عند البلاء أفن. لا تغضبوا من اليسير فربما جنى الكثير. ادرعوا الليل واتخذوه جملا، فإن الليل أخفى للويل. أقصر لسانك على الخير، وأخر الغضب، فإن القدرة من ورائك... أمر أعمال المقتدرين الإنتقام. جز بالحسنة ولا تكافىء بالسيئة. من جعل لحسن الظن نصيبا روح عن قلبه. عي الصمت أحمد من عي المنطق، العي أن تتكلم فوق ما تسد به حاجتك."

وكتابة بعض العهود والصحف لا يعني شيوع الكتابة أو تنوعها في المجتمع الجاهلي الذي غلبت عليه الأمية والبداوة، فهي مذكورة على سبيل الحصر، وأضعاف أضعافها كان يتم مشافهة، فكانوا يعتمدون في مراسلاتهم على المشافهة غالبا، يبعثون رسائلهم شفهية مع أمناء يتخيرونهم، من العهود التي تمت مشافهة تعاقد بني عبد الدار وبني عدي بن كعب بن لؤي وتأكيدهم حلفهم بوضع أيديهم في الدم حتى سميت "لعقة الدم"[6]

الخصائص العامة للرسائل الجاهلية: – عادة ما تبدأ الرسائل وبخاصة العهود بعبارة باسمك اللهم.

–جزالة الألفاظ ورصانتها واعتمادها على الرنين والتطريب، مع وضوحها وسهولتها.

– غلبة الإيجاز – الفصل بين الجمل، فغالبا ما تستقل كل جملة بفكرة.

–استخدام الصور البلاغية خاصة التشبيهات. –كثرة الحكم والأمثال.

–اعتمادهم على الإيقاع الداخلي بواسطة الأسجاع والجناسات والمقابلات والثنائيات الضدية.

–خلوها في الأغلب من الشعر. – اختتام بعضها بجعل الله كفيلا على ماتم التعاهد عليه، وأغلب رسائلهم دون خاتمة واضحة.

–فن الترسل في صدر الإسلام:

الكتابة في فجر الحضارة الإسلامية: احتاج المجتمع الإسلامي الجديد الآخذ بأسباب النظام إلى من يكتب له في الشؤون العامة والمعاهدات والمراسلات، واتخذ من الكتابة إحدى دعائمه، وقد أولى الله سبحانه وتعالى الكتابة أهمية وشأنا في كتابه العزيز، فأقسم بوسائلها: (ن والقلم وما يسطرون/ والطور وكتاب مسطور في رق منشور/ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم)، وجاء في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف: ( )

تطور الكتابة في عهد النبوة ومنزلتها: شجع المصطفى صلى الله عليه وسلم على تعلم الكتابة، فجعل فداء الكتاب من الأسرى تعليمهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة، كما دعا بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأخرى، قال لزيد بن ثابت: تعلم كتاب يهود، فإني ما آمنهم على كتابي. فتعلمها وحذقها وكان يكتب له إليهم ويقرأ له ما يكتبونه إليه. فجر الإسلام/171. كما حظ القرآن الكريم

على الكتابة في المعاملات في سورة البقرة آية المداينة. لتسيير شؤون الدولة الفتية وتنظيم علاقاتها داخليا وخارجيا، في حال الحرب والسلم والرخاء والشدة والأمان والخوف، كانت الحاجة إلى الكتابة في شكل رسائل وعهود وتوصيات ومعاهدات، كما كانت الكتابة وسيلة لإنشاء حقوق جديدة أو إنهاء التزامات قديمة أو إنشاء علاقات جديدة أو قطع أخرى قديمة.

وعليه فقد كان وجود هذه الدولة ونموها المتزايد ومتطلبات هذا الوجود وهذه التطورات السريعة، أهم دافع لإنشاء الرسائل والعهود وسائر المكاتبات التي هي نواة الرسائل الديوانية، وإحدى لبنات الدولة المركزية الجديدة التي اقتضى ترسيخ قواعدها تنظيم علاقاتها مع القبائل المختلفة. فقد أدت الحاجة به – صلى الله عليه وسلم – إلى العناية بالكتابة وحث المسلمين عليها، فبزوغ الدولة العربية الإسلامية أضحت الحاجة ماسة إلى إظهار الكتابة وبثها في الأرجاء لأن الدولة تستلزم علاقات وروابط داخلية، وخارجية لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها إلا بالمراسلات، وهكذا كان إنشاء النبي – صلى الله عليه وسلم – للدولة الإسلامية العربية داعيا إلى إنشاء نظام من المراسلات. فقد اتخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – كتابا يكتبون له القرآن، ويكتبون رسائله التي يبعث إلى رؤساء القبائل، وزعماء المناطق، وملوك الدول المجاورة كفارس، والروم والحبشة[7]... ويعتقد القلقشندي أن ديوان الرسائل أول ديوان وضع في الإسلام، قائلا : « أعلم أن هذا الديوان (ديوان الرسائل) أول ديوان وضع في الاسلام وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يكاتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه... وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء ... كتب لعمرو بن حزم عهدا حين وجهه إلى اليمن، وكتب لتميم الداري وإخوانه بإقطاع الشام، وكتب كتابا لعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية، وكتب في الأمانات أحيانا » [8].

فكان له صلى الله عليه وسلم جماعة من الكتاب تخصصوا بكتابة الوحي عثمان وعلي، وفي غيابهما يكتب له أبي بن كعب وزيد بن ثابت، وفي حوائجه كان يكتب له خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، وكان المغير بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس، وكان عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحضرمي يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم، وكان حنظلة بن الربيع (ابن أخ أكثم بن صيفي) يخلف من يغيب من كتاب الرسول وأكثرهم اتصالا به وكان خاتمه معه فغلب عليه لقب الكاتب. وهكذا دخلت الكتابة في كثير من شؤون المسلمين، تزخر كتب السيرة والحديث والتاريخ بهذه الكتابات التي جمعها محمد حميد الله الحيدرآبادي في كتابه النفيس "مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة"[9]

موضوعات الترسل في صدر الإسلام:

1- المعاهدات وكتب الصلح: يعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في العام الهجري الأول مع قبائل اليهود أو ما يعرف بكتاب الموادعة أول كتاب تنظيمي له في المدينة، خاصة وقريش لا تفتأ تؤلب عليه، في وقت كان المسلمون في مسيس الحاجة إلى الهدوء واستعادة القوة، خاصة ولم يشرع بعد القتال ولم يظهر من اليهود ما يوجب القتال، فهو يؤكد ميل الرسول إلى السلم الذي هو الأصل في الإسلام، وأن الحرب ليست هدفا في ذاتها، وأن هدفه الأول هو إقرار السلام والقيم الإنسانية، حتى ينصرف إلى تنظيم صفوف المسلمين وتوحيدهم والمؤاخاة بينهم بعد محاولة المنافقين الإيقاع بين الأوس والخزرج، وفي المعاهدة مبادىء سياسية وقيم اجتماعية كثيرة منها تقرير مبدأ الأخوة والتعاون بين المؤمنين/ ترك الحرية لغير المسلمين أن يبقى الحال على ما كان عليه/ كل ذلك في ظل الدولة الإسلامية والالتزام بضوابطها...فقد صار الجميع رعايا الدولة الموحدة. كما كانت الحرب النفسية بين المسلمين والمشركين دافعا إلى مكاتبات بين الطرفين، مثل كتاب أبي سفيان إلى الرسول صلى الله عليه وقت الخندق.

2- رسائل العيون والجواسيس: نظرا لحال التأهب التام بين الطرفين فقد كانت الرسائل المحذرة ورسائل الجوسسة تصل باستمرار، منها كتاب العباس بن عبد المطلب إلى النبي يخبره باستعداد قريش للزحف إلى قتاله بعد هزيمة بدر، وكتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرها بسير المسلمين إلى مكة لضربها.

3- رسائل الصلح: وأساسها الحرص على الاستقرار والسلام، أشهرها وثيقة صلح الحديبية، فبعد انتصارات الدولة وكسر شوكة اليهود وكيدهم وتطبيق كثير من التشريعات والتكاليف كالصوم والزكاة وإقامة الحدود وتحقيق التفوق العسكري، لم يبق غير شوكة قريش وقد خرج الرسول في العام السادس للهجرة إلى الحج، ولكنه عاد من حيث أتى موقعا صلح الحديبية الذي أمضى فيه هدنة ب 10 سنوات، وفي هذا العقد اعتراف رسمي من قريش بمحمد قائدا وبالمسلمين كيانا له وجود وسلطان وثقل.

4- رسائل الدعوة إلى الإسلام: كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على نشر الدعوة للعالمين، فكانت له مراسلات إلى الملوك والحكام ورجال الدين مثل كتابه إلى ملك الفرس كسرى برويز، وكتابه إلى المنذر بن ساوى عامله على البحرين، وكتابه إلى المقوقس عظيم القبط، وكان أغلب هذه الكتب في العام الهجري السادس وما تلاه، بعد صلح الحديبية وأمن المسلمين في الداخل ومن قريش وأحلافها. تشترك هذه الرسائل في مضمون محوري هو الدعوة إلى الإسلام، وتبيان أن محمدا رسول الله، وأن الممتنع عن الدين من هؤلاء الملوك والزعماء يحمل إثمه وإثم رعاياه.

5- كتب الهبات والإقطاع: هي كتب تسجل حقوقا لبعض القبائل والجماعات من قبل الدولة، مثل كتابه للداريين يقطعهم قرية عينون وبيت حيرون والمرطوم وبيت إبراهيم.

6- رسائل إلى أفراد: مثل كتاب الأمان لسراقة بن مالك وهو يلاحقه وصاحبه قبل الهجرة...

7- الرسائل التشريعية: هي الكتب التي يفصل فيها أمور الدين ويشرح أركانه وخصوصا الزكاة مثل كتابه إلى ملوك حمير وكتابه إلى معاذ بن جبل واليه على اليمن، تحدث فيه عن خراج الأرض والجزية واليهود...

8- رسائل خارج إطار الدولة: كان الباعث إليها إنسانيا، أرقاها كتابه إلى معاذ بن جبل واليه على اليمن يعزيه في ابن مات له، جاءت مفعمة بالإيمان والتعاطف وصدق المشاركة بين القائد وأحد ولاته، وهي نموذج مبكر في الرسائل الإخوانية.

9- كتب الأمان العام أو الشامل: مثل كتابه لأهل أذرح وجرباء الذي اكتفى فيه بالنص على أنهم "آمنون بأمان الله وأمان محمد"، وكتب الأمان المفصلة مثل عهده لأهل أيلة فقد أمنهم على سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، ولا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر.

10- الرسائل الجوابية: هي التي تكتب ردا على رسالة واردة إليه مرتبطة بموضوعها، منها جوابه لمسيلمة.

وتبعه الخلفاء الراشدون في مراسلاتهم ومعاهداتهم، ومضى على نهجه عصر الخلافة الراشدة ، إلا أنه في عصر عمر بن الخطاب ظهرت الدواوين، إذ احتاج المسلمون إليها كديوان الخراج، وديوان الجيش، خاصة عندما فتحت الأمصار واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فقد كانوا يكتبون إلى الولاة وقادة الجند والقضاة، ويتلقون منهم مراسلات، من أشهرها كتاب عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبي موسى الأشعري. ولم تكن رسائلهم تعتني بأسلوب الكتابة وبلاغتها، فقد سار الخلفاء على منواله – صلى الله عليه وسلم – في كتابة الرسائل، ولم يخلوا بنظمه، إذ لم تخرج غايتهم عن مجرد الإفهام والإبلاغ[10].

خصائص الرسائل في صدر الإسلام:

1- منهج الرسالة (بناؤها): استن الرسول صلى الله عليه وسلم لبناء الرسالة سننا تتبع إلى يومنا هذا أهمها:

- الافتتاح البسملة: وأشهرها صيغة بسم الله الرحمن الرحيم.

- ذكر طرفي الكتاب، المرسل أولا ثم المرسل إليه.

- التحية بالسلام، تعددت صورها تبعا لمن ترسل إليه، إذا كان مسلما تغلب عبارة سلام عليك، ولغير المسلم سلام على من اتبع الهدى، وهناك رسائل عاجلة أو سرية تخلو من السلام.

- عبارة أما بعد ترد بعد السلام غالبا، وتؤذن بالولوج إلى صلب الموضوع الذي أنشئت لأجله الرسالة.

- اختتام الرسالة بالسلام للمسلم ولغير المسلم صيغ كثيرة منها سلام على من اتبع الهدى، والسلام عليكم إن أطعتم.

2- غلبة الإيجاز على رسائله، لأنها محددة الموضوع سلفا ولا مجال للإطالة فيها، مثلا رسالة صلح الحديبية لا تتجاوز الخمسة أسطر، فلم يكن هناك مجتمعات مسلمة خارج شبه الجزيرة مما يقتضي إرسال الكتب الطوال للولاة والقادة، بينما أطال في كتاب الموادعة باعتباره دستور عمل ومعايشة في المجتمع الجديد، وقد أثر عن الخلفاء بعض الرسائل التفصيلية المطولة بحكم انتشار الدين الجديد وتوسع الدولة بعد فتح مصر وفارس...

3- السهولة والوضوح وتجنب الحوشي من الكلام والغموض والإغراب لأن الغرض منها هو الإبانة والتوضيح والإبلاغ.

4- الاسترسال في طلاقة ويسر، فلم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم تكلف أو توعر أو افتعال، ولا عن خلفائه.

5- اعتماد بعض الأساليب الفنية كالتقابل والتضاد مثل قوله ""أسلم تسلم وقوله "فإن فعلت سعدت وإن أبيت شقيت".

6- توظيف الشواهد القرآنية المختلفة، الآيات وأجزاء الآيات والألفاظ القرآنية.

7- اعتماد الأسلوب التقريري المباشر في مواضعه، وأسلوب التصوير في مواضعه، مثل قوله: "وخيلي تحل بساحتكما"، كناية عن القدرة والنصر والسيطرة وعن قوة الدولة الإسلامية... (11)

فن الترسل في العصر الأموي: الترسل أو المراسلة أو المكاتبة، جميعها تدل على التخاطب ولكن بلسان القلم، والترسل بهذا المعنى(12). الترسل من الفنون الأدبية التى عرفت تطورا كبيرا في ظل الدولة الأموية، والرسالة هي كل ما يكتبه المرء إلى صديقه، أو أهله، وتكون موجزة محدودة الموضوع، سهلة الأسلوب خالية من التأنق اللفظي غالبا، والرسائل أنواع منها الديوانية الخاصة بالسلطان الإخوانية المتداولة بين الناس (13).

لم يكن لعرب الجاهلية كبير اهتمام بالكتابة كما سلف وأشرنا، ولم تكن شائعة بينهم وإن وجدت في بعض الإمارات العربية، ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم، وإنما ازدهر عندهم الشعر، والخطابة والأمثال، فإذا انتقلنا إلى صدر الإسلام نجد أن الكتابة انتشرت بتشجيع من النبي - صلى الله عليه وسلم،

وسارت الكتابة المراحل الأولى من العصر الأموي، على النمط نفسه، وجرى الخلفاء في كتابة رسائلهم كما كان عليه الأمر من قبل وقد أنشأ معاوية ديوان الخات، وكان الخليفة في أول الأمر هو الذي يملي الرسائل على كتابه، وبمرور الزمن أخذ الكتاب يستقلون بكتابة الرسائل ثم تعرض على الخليفة (14).

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة أمر بتجويد القراطيس، وتفخيم الخطاب وألا يكاتب بمثل ما تكاتب به السوقة وأن يختص الأعلى درجة بالخطاب أولا سواء أكان مرسلا أومرسلا إليه...، وجرى العمل على ذلك من بعده حتى استخلف عمر بن عبد العزيز، ثم

يزيد بن عبد الملك فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف وقد أمر عمر بن عبد العزيز بعدم الإسراف في القراطيس والأقلام حفاظا على بيت مال المسلمين [15].

تطور الكتابة في العصر الأموي: عرفت الحياة في عصر بني أمية رقيا عظيما، فقد جد الكثير من المشكلات، وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والفكرية، إذ تحضر العرب، وأخذوا يستعيرون كثيرا من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة[16]، فزادت العناية بها لاتساع أعمال الخلفاء، وكثرة شؤون الحكم وتعدد الدواوين فقد زاد معاوية على ما كان منها في عهد الخلفاء الراشدين دواوين أخرى :

ديوان الرسائل : لكتابة الرسائل الصادرة عن دار الخلافة وقد اتخذ عليها عبد الله بن أوس الغساني، وظلت سنة الخلفاء اصطناع كتاب للرسائل ... وكان الخليفة هو الذي يتولى إملاء الرسائل بنفسه فلم تظهر للكتاب شخصية إلا في عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل إذ كان ينوب عن الخليفة في كثير منها، ويذيل بعض الرسائل بما يدل على أنه منشئها.

ديوان الخاتم: ومهمته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مختوما لا يدري حامله ما فيه ولا يستطيع أن يغيره، وسبب إنشاء هذا الديوان على ما ذكره الفخري في كتابه «الآداب السلطانية»، أن معاوية أحال رجلا على والي العراق بمائة ألف درهم، فمضى الرجل وجعل المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الأمر، فأمر بوضع ديوان الخاتم فصارت التوقيعات تصدر منه مختومة [17].

ديوان الخراج: عهد الخلفاء بالكتابة فيه إلى العرب والموالي المتعربين وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصر، ففي العراق وفارس بالفارسية وفي الشام بالرومية وفي مصر بالقبطية حذقها من العرب طائفة صالحة، وقد عربت جميعها في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد [18]. كان يكتب لمعاوية على ديوان الخراج سرجون الرومي بالخط الرومي إلى أن نقلت دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية على يد صالح بن عبد الرحمن في أيام الحجاج ومن الرومية إلى العربية على يد سليمان أيام عبد الملك وفي مصر من القبطية إلى العربية زمن الوليد بن عبد الملك.[19]

عوامل ازدهارها تضافرت عوامل عديدة على النهوض بهذا الفن وتطوره نوجزها فيما يأتي:

1-تحوّلها إلى صناعة:باتساع الدولة وتعدّد مهامها ازدادت الحاجة إلى كتابة الرسائل السياسية، ولما كان الخلفاء في شغل بشؤون الملك، لم يجدوا الوقت الذي يسعفهم في تولّي كتابة الرسائل بأنفسهم أو إملائها على غيرهم، فوكلوا كتابتها إلى حذاق الكتاب، وقد بدأ بهذا الأمر عبد الملك بن مروان الذي اتخذ سليمان بن سعد كاتبا له، وما زال خلفاء بني أمية يقلدون ذلك المنصب لكبار الكتاب حتى صارت الكتابة في آخر عهدهم صناعة متميزة ذات نظم خاصة، وكثر عدد الكتاب وتعددت دواوين الكتابة، وقد عكف أولئك الكتاب على تنميق تلك الرسائل الرسمية وتجويدها.

2-نمو الثقافة العربية: نمت الثقافة في هذا العصر، دينية وقوامها القرآن الكريم وتفسيره والحديث وروايته والفقه والتشريع، وأدبية قوامها اللغة والشعر والتاريخ والأخبار والأنساب، وعلمية دخيلة تمثلت في الطب والمنطق والكيمياء والنجوم والملل...

3-الاتصال بالثقافات الأجنبية: اندفع المسلمون في الأقاليم فاتحين في سرعة فائقة، فتحوا دمشق سنة 14هـ وأكملوا فتح الشام والعراق سنة 17، ومصر سنة 20 وملكوا فارس سنة 21 وبلغوا سمرقند سنة 56 والمغرب سنة 50هـ، واخضعوا الأندلس والسند سنة

93هـ. وقد كانت جلّ تلك البلاد المفتوحة عامرة بالحضارة وبثقافات شتى، في فارس والعراق آداب وعلوم، وفي الشام ومصر فلسفة وفي الهند حساب... فتح المسلمون صدورهم لهذه الثقافات، فكان لذلك أثره العظيم في تطوير فن الكتابة ورقيه.

4-مكانة الكتاب: ارتفع البلغاء ببلاغتهم إلى أقدار رفيعة، وكانت بلاغتهم وسيلة من وسائل مجدهم وغناهم، وهو أمرٌ يحفّز على تجويد هذا الفن واستكمال العدة... وفي تلك المنزلة يقول عبد الحميد الكاتب في وصيته للكتاب [20] : «إن الله عز وجلّ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا، وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معايشهم وأبواب رزقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشهر الجهات، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية، بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلادهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلاّ منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون...» [21].

5-ازدهار حركة الجدل: قام جدل كبير بين الأحزاب السياسية المتنافرة وبين الفرق الدينية والمدارس الكلامية، بل وبين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى...

خصائص فن الترسل في العصر الأموي: تميز فن الترسل في هذه المرحلة بمميزات أهمها:

- الاقتصار في الأغراض على القدر الضروري للدولة العربية، و في المعنى على الإلمام بالحقائق، دون مبالغة أوتهويل[22].
- البساطة التي تنزل بها إلى مستوى لغة التخاطب لدى العرب في ذلك الزمن، وإن وشاها في بعض الأحيان الجمال الطبيعي، ولكنه لا يخرج بها عن لغة الحديث، فما كانت تهدف إلا إلى إفهام المرسل إليهم مضمونها [23].
- مراعاة الإيجاز، وفي ذلك يقول طه حسين: «هذه الرسائل كانت تكتب مختصرة لا يقصد منها إلا مجرد الأداء في غير تفنن، أو إثارة لجمال فني خاص، ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة، جملها صغيرة، توشك أن تكون رموزا ليس فيها هذا التفصيل، أو المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ» [24].

-استعمال الألفاظ الفحلة، والعبارات الجزلة، والأساليب البليغة، إذ كان الكاتب والمكتوب إليه عربا فصحاء.

كانت الضمائر في الرسائل واقفة عند الغرض، جارية على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم، وخطاب الواحد، وكانت تبدأ بالبسملة، وقولهم «من فلان»، و«وبعد»، «إني أحمد الله الذي لا إله إلا هو»، وتختم بالسلام على المسلم أو بقولهم «والسلام على من اتبع الهدى» [25] في خطاب غير المسلمين. ولأن أشهر كتاب العصر الأموي عبد الحميد الكاتب الذي أرسى دعائمها فلا بأس من وقفة موجزة عند إضافاته لهذا الفن.

أ- **حياته:** هو عبد الحميد بن يحي بن سعيد مولى بني عامر بن لؤي بن غالب الكاتب البليغ، يعرف بعبد الحميد الأكبر[26].

وذكر صاحب العقد الفريد أن الحافظ لقبه بهذا الاسم تمييزا له عن عبد الحميد الأصغر، وقد كان كاتبا لسليمان بن عبد الملك [27]. قال الحافظ بن كثير أن أصله من قيسارية ثم سكن الشام، وتعلم هذا الشأن –أي صناعة الكتابة– من سالم مولى هشام بن عبد الملك، وكان يعقوب بن داود وزبير المهدي يكتب بين يديه، وعليه تخرج، وكان ابنه اسماعيل بن عبد الحميد ماهرا في الكتابة أيضا [28]. ثم عمل عبد الحميد كاتبا ليزيد بن عبد الملك، ولما اتصل بمروان بن محمد أثناء ولايته أرمينية وأذربيجان وكتب له وأحسن خدمته، فلما انتقلت الخلافة

إلى مروان في أوائل عام (127هـ). انتقل معه عبد الحميد من أرمينية إلى دمشق، وأصبح الكاتب الأول، ورئيسا لديوان الإنشاء في الدولة الأموية [29].

شهد عبد الحميد كل الأحداث السياسية التي مرت بالعرش الأموي، ولما اشتد الطلب على مروان، وتتابعت هزائمه قال لعبد الحميد: «القوم محتاجون إليك ولأدبك، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك فاستأمن إليهم، وأظهر الغدر بي، فلعلك تنفعني فقال عبد الحميد: يا أمير المؤمنين: إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك، وأقبحهما بي، ولكني أصبر حتى يفتح !في حياتي أو بعد مماتي الله عليك، أو أقتل معك. فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد عند صديقه ابن المقفع، وفاجأهما الطلب، وهما في بيت واحد. فقال الذين دخلوا: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحدٍ منهما: "أنا" خوفا على صاحبه إلى أن عرف عبد الحميد، فأخذ وسلمه السفاح إلى عبد الجبار صاحب شرطته، فكان يحمي له طشتا، ويضعه على رأسه إلى أن مات سنة (132هـ) [30].

كان عبد الحميد برغم أعجميته محيطا بالثقافة العربية الإسلامية، فقد حفظ القرآن الكريم، وأخبار العرب، وأشعارهم، وأمثالهم، وخطب الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين، وبخاصة خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي يمكن أن يعتبر الأستاذ الأول لعبد الحميد في البلاغة.

وقد عرفته صلته بسالم بعض ما يتبعه اليونان في نثرهم، وفي رسائلهم، إذ كان سالم يحذق اليونانية، ويترجم منها، وهو الذي ترجم من رسائل أرسطو إلى الإسكندر وسالم مولى هشام هو ثاني أساتذة عبد الحميد الذين أخذ عنهم، وأما أستاذه الثالث فهو عبد الله بن المقفع، جمعت بينهما صلة صداقة قوية، و كان ابن المقفع ذا صلة بالنثر الفارسي واليوناني معا، ولعله كان يعرف اليونانية لأنه ترجم منها بعض كتب أرسطو في المنطق والجدل [31] . وربما عددنا مروان بن محمد أستاذه الرابع الذي أفاده في الإحاطة بالقواعد العسكرية، والبلاغة في آن، يقول: «تعلمت البلاغة من مروان بن محمد، أمرني أن أكتب في حاجة إلى أخ. فكتبت قدر الوسع، فقال لي: اكتب ما أقول لك: بسم الله الرحمن الرحيم، أما آن للحرمة أن ترعى، وللدين أن يقضى وللموافقة أن تتوخى[32]. فاجتمع له أسمى ما في بلاغة العرب واليونان والفرس [33] .

ولأنه كان كاتبا رسميا للدولة، فقد فرضت عليه شؤون المملكة كتابة الرسائل، رسائل ديوانية؛ إدارية إلى الولاة، ورسائل تنظيمية إلى الرعية، ورسائل تهديدية أو سياسية إلى الثائرين على الحكم، ومن أهم آثاره [34].

-رسالته التي وجهها إلى الكتاب وهي بمثابة النواة الأولى في هذا الفن، فهي أول نصّ في نقد النثر.

-وترك أيضا رسالة مطولة جمع فيها بين الأدب، والأخلاق وهي معروفة بنصيحة ولي العهد.

-رسالة في الصيد، ورسائل أخرى قصيرة، أو هي قطع من رسائل لم تبلغنا تامة منها رسالة في وصف الإخاء، ووصلت إلينا عدة تحميدات مستقلة، وآثاره متفرقة في كتب الأدب جمعها محمد كرد علي في كتاب «رسائل البلغاء» [35].

اتفق البلغاء والنقاد والأدباء على أن عبد الحميد هو الأستاذ الأول لأهل صناعة الكتابة قال الدكتور هاني الحمد: إننا نستطيع أن نضع عبد الحميد في الصف المقابل لامرئ القيس حيث وضع للنثر العربي أسسا، وقواعد وأصولا حتى أصبح بذلك زعيم النثر العربي بلا منازع) [36]. فعبد الحميد جدير بأن ينال مرتبة رفيعة، وفيه قال صاحب اليتيمة: «بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد»، وإن جانب الصواب، فقد عرف العرب قبل عبد الحميد كتابا كبارا تتلمذ عليهم هذا الأخير، كما أنهم لم يعدموا بعد ابن العميد أعلام هذا الفن ورجاله. وفي بلاغته قال ابن عبد ربه «كان أول من فتق أكمام البلاغة، وسهل سبلها، وفك رقاب الشعر» [37]. وقد شهد له

النقاد بالقدرة البلاغية، وشدة التأثير في النفوس الذي يماثل السحر حتى قيل أنه لما ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس كتب إليه عن مروان كتابا يستميله. وقال طه حسين في حديث الشعر والنثر: «أما عبد الحميد فلا غبار على لغته، وربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظٍ، وبلاغة معنى، واستقامة أسلوب فهو أحسن من كتب العربية، ومرنها، وأقدرها وربما كان عبد الحميد الأستاذ المباشر للكتاب المترسلين من بعده وربما كان الجاحظ أشهرهم» [38] . من أهم إنجازاته وإضافاته في هذا المجال: 1-أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب [39].

2-أطال التحميد في أنواع الرسائل وتوسع فيه، بتكرار المعاني تارة، وتوليد بعضها تارة أخرى، وكان يبدأ بعضها بالحمد ثم في فصولها، كما كان يأتي بالكثير من التحميدات في أساليب متنوعة وصور مختلفة، وهو أول من عقب بالحمد بعد البسلمة فاصلا بينهما بأما بعد فيقول : بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد : فالحمد لله [40].

3-القدرة على الإيجاز في غير إخلال حين يكون الإيجاز مطلوبا، وعلى الإطالة في غير إملال حين يكون الطول مرغوبا فيه، حتى قيل إنه كان يكتب في سطر ما يكتبه في صفحات فكان على قدرته في الإيجاز والإطناب يتخير لكل منهما مقامه، فيطنب في الأخبار بالفتوح، والحث على الجهاد، والوعد والوعيد، ويوجز في أخبار الهزائم، ووصف الأعداء.

4-ضمن عبد الحميد رسائله عنصر الازدواج والترادف الذي يتيح لعباراته فنونا من الإيقاعات، والموازنات الصوتية، [41].

5-قصر الفواصل على طريقة الخطابة وإكثاره من الوصف بالحال، والتوسع في أغراض الرسائل لتشمل بعض الأغراض التي كانت قبله خاصة بالشعر، مثل: التعزية، والتهنئة، والنصح والوصف وغيرها. وقد تأثر الكتاب الذين جاءوا بعده بنهجه[42] .

6-البراعة والإبداع اللذان مكناه من الخروج بطائفة من رسائله إلى رسائل أدبية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، محاكيا في ذلك ما كان يعرف من رسائل الفرس الأدبية، إلا أن هذه المحاكاة لم تخل من الإبداع والإضافة، ووضع الأعمال الأدبية والنقدية المبتكرة منها رسالته إلى الكتاب [43]

ختاما فإن عبد الحميد يمثل «القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية في العصر الأموي، إذ كان زعيم البلغاء في عصره غير مدافع، وقد بقيت منثورات من رسائله تشهد بفصاحته، ولسانه ومقدرته على التعبير مع الفخامة والطلاوة» [44].

ملاحظة: الرسائل الأدبية في العصر العباسي بنياتها وجمالياتها: هذا المحور للمناقشة والإثراء في حصة التدريس